

في حياتنا الوجدانية^(*)

[عودة إلى الأستاذ عبد النعم خلاف . . .
الكاتب الذي أحب عالم الوجداني]

للأستاذ حسين مروة

ما الكرامة وما للشرف ؟

ما الحرية وما المجد ؟

أسماء نعمة رائعة ، ذات أجنحة سحرية عجيبة تنجذب إليها
طائمين مسحورين ، فتخلق بنا في سموات من الخيال مواجهة
بالأنوار والألحان والمباهج ...

أسماء ذات أبعاد ضئيلة ، محدودة ، ناقصة ، يكن في أطوائها
سر من الأسرار لا تحده الأبعاد الواسعة ، سرٌ "بفيض الخبير"
على جوانب الحياة كلها ، ويطوف بالنفوس الإنسانية جميعاً فيثير
في الضمير الماجز مجرد الحنين واللغة والألم ، ويحمل القوى
القادر على ركوب الأخطار والأهوال والمكاره ، وقد ينفخ
في الضمير الحى الطموح قوة تكسح بذور الضعف ، وتصرع
عوامل للعجز والخنوع والاستسلام ...

ما هي هذه الأشياء الحبيبة للإنسان تبهه أضواؤها ومباهجها
وتشتد لهفته إليها كلما اقترب منها ، ويتعنى بوجده بها في سره
وجهره ، في سحوه وسكره ، في كوخه الرضيع وقصره الرفيع ،
سواء أ كان غيبياً أم ذكياً ، ضميماً أم قوياً . أ كان باديًا في
الصحراء القاحلة ، أم حاضرًا في المدينة المأمرة ؟ أ كان فلاحاً
يتصيب عرقه في حقله ، أم طاملاً يجرب في مخبره وينقب في كتبه ؟
ما هذا الهوس المحموم يدفع الإنسان - أفراداً وجماعات -
إلى غمرات الموت بين اللظى المستمر والحديد الحاصد ، فيندفع

(*) مثلك مجلة الخطابة والتبليغ ، في ثانوية الناصرية (المران)
في شهر أبريل الماضي رواية (الاستعداد) للمؤلف المسمى والمثل المعروف
الأستاذ يوسف وهي ، وهي مسرحية تدور حوادثها في سراكش إبان
ثورة الزعيم عبد الكريم الريني ، وهي تصور جانباً من منهجية المستمر ،
وجانباً من إياه العربي الضمير ، ومن هذه المناسبة استوحى الكاتب كلبه هذه

راضياً مستمذباً لتعا لشدائد في سبيل ما يدعو الكرامة والشرف
أو في سبيل الحرية ومجد الأوطان ، لكأنما هو - حين يلقى
الشدائد في هذا للسبيل - إنما يلقى أحبة أعزة في ظلال أمن
وارف ودعة ظليلة ناعمة ... ؟

ما هي الكرامة والشرف ؟

وما هي الحرية والمجد ؟

هل هي حقائق ذات قرار في عالم الحس والواقع : العالم الذي
نعرف إلى حقائقه الموجودة بإحدى هذه الأدوات الخمس : العين
التي تبصر الألوان والأنوار والظلال ، والأذن التي تسمع
الأصوات ، واللفم الذي يذوق الطعم ، والأنف الذي يحس
الرائحة ، واليد التي تلمس الحرارة والبرودة والخشونة والنسومة ؟
هل للكرامة والشرف ، وهل الحرية والمجد حقيقة من هذه
الحقائيق المحسوسة في هذا للعالم الواقعي الذي لا يمترينا الريب
بوجوده ؟

كلا : ليست هي شيئاً من هذا كله - كما نعلم جميعاً -
أ تكون - إذن - معدومة لا قرار لها في هذا الوجود الواسع ؟
أ تكون - إذن - غارقة في بحر اللدم للأنهائي ؟
ولكن : كيف تكون للكرامة والشرف ، والحرية والمجد -
عدماً من الأعدام وها هي أضواؤها الباهرة تبهه عيون الشعوب
الضعيفة وللقوية على السواء ، وها هي أنفاسها للصارخة تدفع
بالإنسانية اليوم إلى الجزرة الهائلة للطاخنة ، وها هي الدماء البريئة
تراق على جوانبها ، وقد كانت كذلك من قبل أن يقول للشاعر
العربي العظيم :

لا يسلم للشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبها الدم
وستظل كذلك حتى ينصب ميزان العدل أمام الديان الأعظم ...
كيف تكون للكرامة والشرف والحرية والمجد عدماً من
الأعدام وهي نفسها تلف سبعين مليوناً ونيفاً من العرب بشملة
واحدة وهم في رقع من الأرض متباعدة ؟ وهي : هي نفسها تشد
الأواصر وتجمع القرايات ، وتوحد الشعراء بين شعوب العربية
على اختلاف الديار والأحوال . وهي نفسها - كذلك - تدفع

هو الآية الكبرى من آيات الطبيعة جاءت بها لتقيم البرهان على عظمة الخلق والإبداع الإلهي
هو الكوة التي بطل منها الأنبياء والمصلحون على الناس
ليصدقوا عليهم أنوار الإيمان والفضيلة والرحمة والمدالة فتفتح له
عيون ، وتمش منه عيون ...

هو النظار السحري المجيب الذي يتطلع منه الشعراء ،
والفنانون الماهمون إلى الوجود ، فيكشف لهم أسرار الوجود
وخفاياه ، ويلون لهم الحياة بألوان من الجمال وألوان من القبح ،
ويصور لهم الناس صوراً من الملائكة وصوراً من للشياطين ،
ويخلق لهم عالماً من السعادة يموج بالمطر ولانهم ، أو عالماً من
الشقاء تفتح فيه الأعاني ، وتضري الذئاب ...

هو مصباح الفلاسفة والثالين يدورون به في مجاهل للكون
وخباياه يبحثون عن الحقائق السكوية الطالقة ، ويتناقلون به إلى
مكامن النسر المحجب يستكنهون معنى الإرادة للملأ فبا وراء
المحسوس ، أو يسرون به على الأرض في دنيا المطامع والشهوات
يبتشرون برسالة الحق والخير والجمال الأنسي

هو للعالم الجميل الذي يمش به المحبون في سبحات من النور
تصور لهم كل لحظة من جمال الطبيعة معنى من معاني الحبيبة أو الحبيب
ذلك هو عالم الخيال والذهن والإدراك ، أو هو عالم «الوجدان»
كما يسميه العلم

فلانسان - إذن - وجودان لا وجود واحد : هما الوجود
الواقعي المحسوس ، والوجود الذهني غير المحسوس ، أو فنقل :
إن للانسان حيتين : حياة مادية ، وحياة وجدانية ، وكلتا كانت
حياته الوجدانية أوسع أفقاً ، وأكثر إشراقاً - كان أقرب
إلى الإنسانية الصحيحة أو كان أقرب إلى معنى السكالم الإنسان
وكلما ضاق به أفق الحياة الوجدانية ونظر إلى دنياه من نافذة الحياة
المادية وحدها - كان أبعد ما يكون عن الحقيقة الإنسانية
بفهمها الأعلى ، وأقرب ما يكون إلى حقيقة هذا الحيوان الأعجم
يشاركه كل المشاركة في ماديته الممياء المجردة ، بل قد يفضله
الحيوان الأعجم في هذه الناحية المشتركة

وشعور. الإنسان بالكرامة والشرف ، وشوقه إلى الحرية

بيضة نفر من هؤلاء الشباب المتحمسين إلى المسرح يمثلون
- أمام جمهور عربي متحمس - دوراً من أدوار جهاد العرب
القدس في سبيل للكرامة والشرف وفي سبيل الحرية ومجد الوطن ؟
إذن : لا سبيل للشك في أن هذه الماني الوجدانية السامية
ليست هي من الأشياء النادرة في بحر المدم المطلق ، ولا سبيل
للشك - إذن - بأنها في قرار مكين من هذا الوجود

نعم : هي موجودة دون شك ولكن ... ولكن أين يقع
محلها في بحر هذا الوجود الأوسع ما دامت لا قرار لها - كما قلنا -
في عالم الراقع المحسوس ؟

وهنا يبدو لنا سؤال هو مفتاح السر في هذا الموضوع :
تري : أكان الإنسان إنساناً بمجرد هذا الوجود الحسي
الواقعي وحده ؟ إذن : فامعنى هذه الإنسانية المتبججة بأسرارها
الخطيرة ؟ ما معنى هذه الإنسانية المفضلة - تفضيلاً مطلقاً -
على كل شيء وهب نعمة الوجود ؟ ... ما معنى هذه الإنسانية
الزهوة بمظمتها إذا كان وجودها قائماً على جانب واحد هو الجانب
الحسي الواقعي ، الجانب المادي دون غيره ؟ وأين يمتاز الإنسان
- إذن - عن الحيوان الأعجم إذا كان يشاركه في هذا الجانب
المادي من الوجود ثم لا يزيد شيئاً بمد ذلك ؟

الهم لا : إن هذا الإنسان العظيم لأرفع شأننا ، وأجل خطراً
من أن تكون إنسانيته العظيمة قائمة على وجودها المادي مجرداً ،
لا يستند جانب آخر من جوانب الوجود ... لا : ليس الإنسان
كائناتاً حياً وكفى ... بل إن الإنسان : كائن حي ، أعلى ، فهو
إنسان - إذن - لأنه ذو جانبيين اثنين يشارك بأجدهما سائر
الكائنات الحية في هذا الوجود ، ويتفرد بالجانب الآخر واقفاً
على قمة الهرم : هرم الحياة

فأهو الجانب الآخر الذي يصدق بالإنسان إلى قمة الهرم ؟
هو لون من الوجود أقاضته للطبيعة على هذا الكائن الحى
فصار إنساناً ، وصار الإنسان سيد الوجود على الإطلاق
هو لون من الوجود غريب بأبي التعريف والتحديد ، لأنه
يسمو فوق الحدود وفوق القيود ، وإنما نعرفه بمظاهره وأثاره
ليس غير

أُم للعالم رسوخاً في الحياة الوجدانية السامية ، لأن تاريخها المجيد
 طافح بآثار قوة الشعور بالكرامة والشرف ، وشدة الظلم إلى
 الحرية والمجد ، وأيامها التاريخية اللامعة حافلة بالأمثال العالية لحب
 الكرامة والشرف ، وحب الحرية والمجد إلى حدود الغلو ،
 وهي حافلة كذلك بالشواهد للمجيبة على التضحية والفتداء في سبيل
 هذه المعاني الوجدانية سواء في الماضي والحاضر ، وستكون
 للعرب مثل هذه الشواهد والأمثال في المستقبل — كذلك —
 حتى يفتقدوا كرامتهم من المهوان ، وشرفهم من الامتهان ،
 وحتى يدركوا حريتهم للعالية السليب ، ويؤثثوا بمجدهم الرفيع
 الذي كاد يصبح خبراً من أخبار القبايرن العائرين .

هسين مرده

(العراق)

والمجد — ها المظهر الأسمى لإنسانيته الصحيحة ، لأن الشعور
 بالكرامة والشرف ، والشوق إلى الحرية والمجد — ها أقوى
 مظاهر الحياة الوجدانية ، وأدل على خصب الخيال ، وسعة آفاق
 الذهن ، وغزارة ينبوع الجمال للنفس ، وقوة إشعاع الروح —
 هذه الأمور التي تنبع رأساً من دنيا الوجدان في حياة هذا
 الكائن الحى الأعلى ... الإنسان

ولا فرق في هذا كله بين شعور الإنسان بكرامة نفسه
 وشرفها ، وشوقه إلى حريتها ومجدها ، وبين شعوره بكرامة قومه
 وشرفهم ، وشوقه إلى حرية أوطانه ومجدها ، بل : لعل هذين
 أمران متلازمان لا ينفكان كما يبدو لدى النظر التعميق
 وعلى ضوء هذا التحليل للصادق نعتبر الأمة للمرية في مقدمة

